وكانت ولايته نيابةً واستقلالاً قريباً من خمسين سنة[١].

قال: ولم يؤخذ على المبارز شيء إلا أنه كان يحبس وينسى، فعوقب بمثلِ ذلك؛ أقام محبوساً خمس سنين إلا أياماً[٢].

قال: وجَرَتْ لي معه واقعةٌ عجيبة؛ كنتُ في كلِّ ليلةِ جُمُعةٍ أزوره، وانقطعت عنه مُدَّة بسبب إغلاق باب داره في بعض الأوقات، فرأيتُ في المنام كأن قبره في روضةٍ خضراء، والقبر معمول بالفَصِّ الأخضر، وليس هو من جنس فصوص الدُّنيا، فطَرِبْتُ لحُسْنه ورونق المكان، فَهَتَفَ بي هاتِفٌ: لو رأيتَ ما في باطن القبر. قلتُ: وما في باطنه؟ قال: الدُّرُّ والياقوت والمَرْجان، وما يستغني عن قراءة كتاب الله تعالى. فانتبهتُ وفهمت الإشارة، فأنا في كلِّ ليلةٍ أقرأ ما تيسَّر من القُرْآن، وأهديه إليه، وإلى أهلي وأصحابي ومعارفي[٣]، رحمهم الله وإيانا.

وفيها توفي البدر الجَعْبري[٤] والي قلعة دمشق، أقام واليها مُدَّة في أيام المُعَظَّم، وخَدَمَ الظَّاهر بحلب وغيره، وحُمل إلى بالس، فَدُفِنَ عند أهله.

ثم دخلت سنةُ أربعٍ وعشرين وست مئة

ففيها قَدِمَ رسولُ الإنبرور ملك الفرنج البحرية على المُعَظَّم بعد اجتماعه بالكامل، يطلبُ منه البلاد التي كان فتحَها عَمُّه صلاحُ الدِّين رحمه الله، فأغلظ له، وقال: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، ما له عندي سوى السَّيْف.

وفيها في آخر شعبان سافرتُ أنا إلى بيتِ المقدس صحبةَ الفقيه عِزِّ الدِّين

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣هـ).

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) له ترجمة في التاريخ المنصوري: ١٢٨، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٣ هـ).

عبد العزيز بن عبد السَّلام وغيره على سبيل الزِّيارة للأقصى والخليل، وما بتلك الدِّيار من الآثار، ورجعنا إلى دمشق بعد أربعةَ عَشَرَ يوماً.

وفيها حَجَّ بالنَّاس من الشَّام الشُّجاع بن السَّلَّار، وهي آخر إمرته على الحاج، وآخر السنين التي كان الحَجُّ فيها رخيّاً طَيِّباً، وانقطع رَكْبُ الحَجِّ بعدها مُدَّةً بسببِ ما وَقَعَ بالشَّام من الاختلاف والفِتَن.

وفيها حَجَّ من مَيَّافارقين سُلْطانُها شهاب الدِّين غازي بن العادل.

قال أبو المُظَفَّر: وكان ثَقَلُه على ست مئة جملٍ، ومعه خمسون هجيناً، على كلِّ هجين مملوك، وجهَّزه الأشرف جَهَازاً عظيماً، وسار غربي الفُرَات، على قَرْقيسيا والرَّحبة وعانة والكبيسات والغمر والعين وشفاثا، وكلُّها قرًى فيها عيون جارية، ونخلٌ كثير، ومنها يجلب التمر إلى الشَّام. وعَبَرَ على كربلاء، فزار المشهد، ثم دخل الكوفة، وزار مشهد أمير المؤمنين، وحج بالنَّاس من ١٥٢
العراق شمس الدين قيران مملوك الخليفة، وبَعَثَ الخليفة لشهاب الدِّين فرسين وبغلة وألفي دينار، وقال: هذه من مِلْكي، أَنْفِقْها في طريق الحجِّ. وأوصى أميرَ الحاجِّ بخدمته، وتصدَّق في مكة والمدينة، وعاد على العراق، ولم يَصِلِ الكوفة، بل سارَ غربي الطَّريق التي سَلَكها، فكاد يَهْلِكُ هو ومَنْ معه عَطَشاً حتى وصَلَ إلى حَرَّان[1].

وفيها توفي بدمشق سُلْطانُها الملك المُعَظَّم عيسى بن أبي بكر بن أيوب[2].

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٤ هـ).

(٢) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٢، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦٢٤ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٢١٢، عيون الأنباء: ٦٩٩، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦، مفرج الكروب: ٤/ ٢٠٨ ـ ٢٢٤، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٣٨، تاريخ الإسلام (ت ٢٥٧، وفيات سنة ٦٢٤ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٢٠ ـ ١٢٢، العبر للذهبي: ٥/ ١٠٠، تحفة ذوي الألباب للصفدي: ٢/ ١٠٨ ـ ١١٤، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٢٤ هـ)، الجواهر المضية: ٢/ ٦٨٢ ـ ٦٨٤، السلوك للمقريزي: ج١/ ق١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢، شفاء القلوب: ٢٧٦ ـ ٢٩٠، النجوم =

مَلَكَ الشَّامَ بعد أبيه من العريش إلى حِمْص، وما بين الأرض المقدسة ومدينة النَّبيِّ ﷺ من الكَرَك والشَّوْبك، وتبوك، والعُلا. وكان قد سَيَّر في سنة اثنتين وعشرين وست مئة ـ وهي السنة التي حججتُ فيها ثانياً[1] ـ مِنْ مَسَحَ الأرض من باب الجابية إلى جبل عَرَفات، وكَتَبها له منزلةً منزلةً، وسَهَّل في طريق الحج مواضعَ كانت وَعْرةً كثنية الصوان، وكثَّر المِيَرَ لهم في أراضي الكَرَك والشَّوْبك وتبوك والعُلا والمدينة ـ على ساكنها السلام ـ فكان الحجاج يجدون بذلك رفقاً عظيماً، وبالجملة تفرَّد من بين الملوك بالجمع بينَ مواظبة الغزو والاشتغال بأنواع العلوم، والحج إلى الحَرَمين بنفسه، وإعانة غيره عليه.

وكان عديمَ الالتفات إلى ما يرغب فيه الملوك من الأبهة والتعظيم والمدح وغير ذلك، فكان ينهى نوَّابه على إمرة الحاجّ الشَّامي من مزاحمة الملوك في إطلاع الأعلام إلى رأس جبل عرفات؛ فكنتَ ترى علمه مركوزاً إلى جانب محمله تحت الجبل.

وكان يركبُ وحدَه مراراً كثيرةً، ثم يتبعه مَنْ شاء مِنْ غِلْمانه طاردين خلفه.

وكان إذا كان بدمشق يأتي كلَّ جُمُعة في السَّاعة الرَّابعة أو نحوها إلى تُرْبة والده قُبالة دار العقيقي، يجلسُ فيها هو ومَنْ معه من أُمرائه وخواصِّه إلى أن يؤذِّن المؤذِّن لصلاة الجمعة، فيخرجُ حينئذٍ ماشياً إلى تربة عَمِّه صلاح الدِّين ـ رحمه الله ـ المجاورة للكلَّاسة، فيصلِّي الجمعة بها مع النَّاس، أقام على ذلك زماناً.

وكان جميلَ الصُّحْبة، مُكْرِماً لأصحابه، مُنْصِفاً لهم، كأنه واحدٌ منهم.

= الزاهرة: ٦/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨، تاج التراجم: ١٧١ ـ ١٧٢، حسن المحاضرة: ١/ ٤٦٥، الدارس: ١/ ٥٧٩ ـ ٥٨١، القلائد الجوهرية: ١/ ٢١٩، شذرات الذهب: ٥/ ١١٥ ـ ١١٦، ترويح القلوب: ٥١، الفوائد البهية: ١٥١ ـ ١٥٣.

وقد توفي الملك المعظم آخر ذي القعدة سنة ٦٢٤ هـ كما ذكر أبو شامة في ترجمته الأولى له، انظر ص (٢٨) من مقدمة هذا الكتاب.

(١) انظر ص ٣٧٨ من هذا الجزء.

أنشدني المحبُّ بن أبي السعود البغدادي الحجازي ـ وكان من الملازمين خدمته ـ قال: نظمتُ فيه لما توفي رحمه الله تعالى:

لئنْ غُودِرَتْ تلك المحاسِنُ في الثَّرى بَـوَالٍ فـمـا وَجْـدِي عـلـيـكَ بـبـالِ
ومُذْ غِبْتَ عني ما ظَفِرْتُ بصاحبٍ أخي ثِـقَـةٍ إلا خَـطَـرْتَ بـبـالي[1][2]

* * *

(١) دفن في القلعة، ثم أخرج بعد ذلك في ليلة الثلاثاء مستهل محرم سنة (٦٢٧ هـ)، إلى جبل قاسيون، فدفن في قبة عند تربة والدته، وهي المعروفة بالمقبرة المعظمية، انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٩٥، وص ١٧٣، ٢٠٤ من هذا الجزء.

(٢) جاء هنا في نسخة المتحف البريطاني ونسختي كوبنهاجن وعارف حكمة المقدمة الأولى التي كتبها أبو شامة لتاريخه هذا في تأليفه الأول له، مع السنوات الأربع ٦٢٠ ـ ٦٢٤ مختصرة قبل تعديلها في تأليفه الثاني له.

وانفردت نسخة كوبنهاجن وعارف حكمة بذكر مرثيات وأشعار لأبي شامة قبل هذه المقدمة، وقد أثبت ذلك كله في مقدمة الكتاب، وانتزعتها من موضعها هنا حفاظاً على تسلسل وقائع هذا الكتاب على السنين، واقتداءً بما جاء في نسختي برلين وباريس، وانظر المقدمة ص (٢٣).

obeikandl.com